الإعلام والمجتمع

2017/6/17

العمليات المجتمعية أدوات لإدارة مختلف شؤون الحياة في المجتمع، جاء تطورها بشكل تلقائي حتمته حاجة المجتمعات الإنسانية المتغيرة عبر العصور. أما العمليات المعنية فهي: العملية الاجتماعية الثقافية، والعملية السياسية، والعملية الاقتصادية، والعملية الإعلاماتية التي تضم الإعلام والمعلومات. ولقد جاء ظهور العمليات هذه تباعا، ما جعل دور كل عملية ومجال عملها يختلف عن الأخرى. فعلى سبيل المثال، فيما انحصر نفوذ العملية الاجتماعية الثقافية ضمن حدود مجتمع واحد، اتسع مجال نفوذ العملية السياسية ليشمل الأراضي والشعوب التي سيطرت عليها الدولة، ما جعلها تلعب دوراً إقليمياً. أما العملية الاقتصادية فقد امتد نفوذها ليشمل الحياة الاقتصادية وبعض أوجه الحياة الأخرى لمعظم دول العالم، فيما جاء تأثير العملية الإعلاماتية ليشمل كافة أوجه الحياة لكافة شعوب الأرض أفراداً وجماعات ومنظمات وحكومات وثقافات. الأمر الذي مكن العملية الأكثر نفوذا في المجتمع من استقطاب أفضل العقول والمواهب المتاحة للعمل في خدمتها ومساعدتها على تحقيق أهدافها. فالعملية الاجتماعية الثقافية سخرت أفضل العقول المتاحة محلياً للعمل في خدمة الدين والمؤسسة الدينية، فيما قامت العملية السياسية بتوظيف أفضل العقول والمواهب في قيادة الجيوش وإدارة شؤون البلاد وجمع الضرائب من الناس والتحكم في أرزاقهم وأعناقهم.

وحين تبلورت العملية الاقتصادية، وجدت نفسها بحاجة لجذب أفضل العقول والمواهب في البلاد التي تنشط فيها وتسخيرهم لتطوير تكنولوجيا الإنتاج، وإدارة الأموال والمشاريع الاستثمارية، والقيام بدور الوسيط بين القوى الاستعمارية والشعوب المُسْتعمَرة. وبعد تبلور العملية الإعلاماتية واستحواذها على الدور الأهم في حياة المجتمعات الإنسانية كافة، فإنها وجدت نفسها مضطرة لاستقطاب أفضل العقول والمواهب المتاحة عالمياً لتطوير تكنولوجيا الاتصالات وصناعة المعلومات، وإعداد البرامج التعليمية والترفيهية والدعائية. وبسبب ما لمؤسسات الإعلام عامة من دور في رصد الخبر وخلقه وصياغته وتحليله وتعميمه بين الناس، فإن العملية هذه أصبحت الأداة الأقدر على إعادة تشكيل ثقافات الشعوب، وتطوير طرق التفكير الفردية والجماعية، والتأثير في أنماط الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية، والتلاعب في مشاعر البسطاء وتزييف وعيهم، ودفعهم نحو التعاطف مع قضايا معينة دون سواها، والقبول بسياسات لا تسعى بالضرورة لخدمة مصالحهم.

من ناحية أخرى، استطاع الإعلام، بفضل قدرته على الوصول إلى كافة قطاعات الشعب، في كافة بقاع الأرض، في كل ساعات الليل والنهار أن يجعل حفنة من الرجال والنساء نجوماً عالميين ووجوها مألوفة لدى مختلف الشعوب، وشخصيات تتمتع بقدر كبير من المصداقية. وهذا تسبب في جعل مستقبلي الرسالة الإعلامية يتحولون إلى أدوات طيعة في يد صانعي الرسالة الإعلاماتية من رجال ونساء وشركات تجارية ومؤسسات رسمية؛ الأمر الذي سمح لهؤلاء بالتلاعب في مشاعر الجماهير وتشكيل مواقفها بشكل يجعلها أكثر تجاوباً مع أهواء المهيمنين على العملية الإعلاماتية الكونية ومؤسساتها. وبسبب ما لدى شركات الإعلام عامة من إمكانيات مادية وبشرية وتكنولوجية

متطورة وأقمار صناعية، فإن غالبية شعوب الأرض، وفي مقدمتها شعوب الأمة العربية، غدت ضحية لنزوات وتفاهات وأكاذيب وخداع الإعلام الغربي والعربي على السواء.

ومما ينبئ بأن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ أن مؤسسات الإعلام العربية غير الرسمية، خاصة محطات التلفزيون التي تبث عبر الأقمار الصناعية أصبحت مملوكة من قبل مستثمرين بعضهم فاسد وجاهل، وغالبيتهم غير معنية بأية قضية قومية أو أخلاقية أو إنسانية، لأن قضيتهم الوحيدة هي الربح. أما مؤسسات الاعلام الرسمية، فلا تزال تعاني التخلف تحت وطأة قوى تجهيل دينية وتزييف سياسية تُسخرها لخدمة أهداف خاصة لا علاقة لها بمصلحة عامة. ومن اجل تحقيق أهدافها وحماية مصالحها النخبوية، فإن تلك القوى تقوم اليوم بتوجيه العملية الإعلاماتية إلى اجترار الماضي وتكريس ما يشتمل عليه التراث من خرافات وشعوذات وحكم تجاوزها الزمن منذ زمن، وحرمان الفكر العلمي العقلاني من الوصول إلى الجماهير من خلال القنوات الإعلامية. وهذا يعني أنه لا يمكن للمساهمين في صنع التاريخ أن يحققوا أهدافهم إلا من خلال العمليات المجتمعية عامة والعملية الإعلاماتية خاصة، وأن قدراتهم على التأثير في حركة التاريخ تعتمد على وعيهم بأهمية تلك العمليات وكيفية تعمل، وركوب موجاتها، والعمل على تطويعها والاستفادة منها.

من ناحية ثانية، تسببت عمليات التطور العلمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية عبر الزمن في تحويل كل عملية مجتمعية إلى معاهد ومؤسسات متخصصة تُنتج معا كل ما ينتجه البشرية من أفكار وبضائع ومعلومات وعلوم وخدمات. وهذا جعل من غير الممكن أن ينتج إنسان، مهما أوتي من علم وذكاء وفطنة أعمالا خلاقة من دون ان يكون جزءا من مؤسسة تعمل في مجال تخصصه، ربما باستثناء عمالقة الفكر والفلسفة والفن.

وباختصار، لم يعد بإمكان مفكر أو عالم أو مبدع أو قائد سياسي أو رجل دين أن ينشط ويغدو معروفاً ومؤثراً في محيطه إذا تعذر عليه إيجاد مؤسسة ترعاه وتقوم باستضافته، ولديها القدرة على دعمه وتوفير البيئة المناسبة لقيامه بممارسة نشاطاته. كما أنه لم يعد بإمكان شخص أن يوصل ما لديه من معارف علمية وأفكار خلاقة للمعنيين من الشعوب من دون أن تتيح له قنوات الإعلام الفرصة لنشر ما لديه من آراء وحقائق على الملأ. وتبعاً لذلك، لم يعد صنع التاريخ في متناول يد أفراد مهما عظمت مواهبهم، ولا من اختصاص دول مهما ملكت من عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والعلمية، بل أصبح نتاجاً لفعل عمليات مجتمعية ذات طبيعة ديناميكية لا تخضع لسيطرة شخص أو منظمة أو دولة. وهذا يجعل التقدم والتخلف في هذا العصر نتاجاً لفعل العمليات المجتمعية، ويجعل تحقيق الأهداف الذاتية والفئوية والوطنية مرتبط بالقدرة على تحديد مسارات تلك العمليات والتأثير فيها، والقيام في الوقت نفسه باحداث التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المطلوبة للتجاوب مع استحقاقاتها.

د. محمد عبد العزيز ربيع www.yazour.com